الثقافة والمثقف

للأستاذ الدكتور منصور فهمى

هذا موضوع طريف البحث ، أملاه الأستاذ الدكتور منصور فهمى منذ شهر تقريبا ، وقد طلبت اليه الجامعة الأمريكية أن يحاضرها فيه . فألقى الأستاذ خلاصة منه بقاعة بورث التذكارية بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٣١ تحت عنوان (كيف يلوح الرجل المثقف)

وها نحن أولاء ننشر بعض ما حصلنا عليه من المذكرات التى أخذناها من الدكتور

المحرر

كلمة ثقافة من الكلمات ذات الصور الرائعة التى تسكن إليها النفس ، والعبارات الشائعة التى أضحت من مستلزمات العصر . لهذا أود أن أتحدث حول معنى الثقافة والمثقفين من الناس ، و إن معنى الثقافة وصور المثقفين لمن أعلى المعانى وأروع الصور ، وفضلا عن ذلك فأن الكاتب الذى تتاح له فرصة الكتابة فى موضوع يتعلق بالأنسان كالذى نحن بصدده — يكون أقرب إلى نفوس من يتحدث إليهم أكثر ممن يتحدث فى أمر لا يرتبط بالأنسان ذاتا . ومهما يكن من اهتمام العقول بكل أمر و كل موضوع فأن اهتمامها يبدو أشد بكل ما يتعلق بالأنسان وللأنسان ، ولقد أصاب الفيلسوف الفرنسى (أوجوست كومت) إذ جعل العلوم الاجتماعية أو علوم الأنسان فى أعلى الدرج العلمى ، وليس ذلك لشدة تشعب هذه العلوم وجدتها ولا لتعقيدها وحاجتها لقوة التفكير فحسب بل لأن موضوعها هو الكائن الذى له فى نظر نفسه أسمى مركز فى الوجود

على أنى إذا كنت أقبل معالجة هذا الموضوع بالاغتباط ، فأنى لا أستطيع أن أخفى على نفسى الصعوبات التى تظهر عند البحث فيه ، وذلك لأن كلمات : الثقافة والتثقيف والمثقف وما إليها ، كلمات استعملت حديثاً للدلالة على معان

جديدة كانت من خلق هـذا الزمن الحديث وحاجاته . فمن نيف وثلاثين عاما وضع الألمـان كلمة ثقافة فى لغتهم الأدبية بجانب كلمة حضارة ليستدلوا بالأولى على النواحى الأدبية والمعنوية التى يحرص الأنسان على تمجيدها والانتفاع بها ، وليستدلوا بالكلمة الثانية على النواحى الصناعية والفنية التى أنتجها العلم والتى تحرص الأنسانية على الاستمتاع بها ، وعلى أثر ذلك دخلت لفظة ثقافة فى البلاد اللاتينية والبلاد الأوروبية الأخرى بشىء من الشدة والمقاومة حتى استقرت العبـارة فى التواضع والاستعمال ليستدل بهـا على النواحى الأدبية فى مدنية من المدنيات

وعند احتكاك الأمم العربية بالأمم الغربية ولغاتها وآدابها ، دخلت هذه اللفظة فى العربية من نحو عشر سنين تقريباً ، ويرجع الفضل فى إدخالها إلى طائفة من الكتاب المعاصرين . كنت أود أن أتحقق من معرفة أول واضع لها لأنوه باسمه وعلى كل حال فأن كلمة ثقافة على جدة مدلولها سواء أكانت باللغات الأفرنجية أو العربية فأنها قديمة من حيث هى حروف ومخارج أصوات

وشأن الكلمات شأن الكائنات الحية ، فقد تطور فى معانيها بمعنى أنها تدل على مالم تكن لتدل عليه تماما فى زمن سابق

لوكان مايمر بذهنك من المعانى يصور إدراك الأمور على حقيقتها فى إتقان لكان لك أن تقنع فى حاجات التخاطب بكلمات التعلم والمتعلم وما إليها . ولو كان مرادك تصوير المعانى التى يشار بها إلى المهارة والحذق لكان لك أن تستخدم لفظ الفطنة

وقد استخدمت عبارة الثقافة فى ذلك المعنى ، وفى معنى الظفر فقال ابن دريد : ثقفت الشىء حذقته . وقال الله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » وقد استعملت لفظة الثقافة فى وقت ما ليستدل بها على اللعب بالسيف قال الشاعر :

وكأن لمع بروقها فى الجـــو أسياف المثاقف

وقد استخدمت لفظة « الثقاف » لآلة تقوم بها الرماح إذا اعوجت . لكن

شيئاً من ذلك كله لا يراد من عبارة ثقافة فى هذا العصر ، وفى لغتنا العربية التى تفاهمها فى الأدب والكتابة وإنما يراد شىء آخر ، فأذا قال إنسان عن آخر إنه مثقف فانما يريد بذلك أن يصور للمخاطب صورة خاصة ليست هى صورة المتعلم ، ولا صورة الفطن ، ولا صورة الفاهم ، ولا صورة الظافر فحسب ، ولكنها صورة أخرى نريد أن نحددها تحديدا حتى تظهر بعينها وفى حدودها ، عند مانلفظ لفظة الثقافة ، أومايشتق منها

و يخيل إلى أن أفضل أسلوب لتحديد الصورة الذهنية لمعنى الثقافة الجديد ، وضبطه فى أذهان المتعاملين بهذا اللفظ - يخيل إلى أن خير أسلوب فى ذلك هو أن نبين ماالذى تدل عليه عبارة المثقف عند أهل الغرب ، وكيف تلوح عندهم صورة الأنسان المثقف ، وبما أننا قد اقتبسنا اللفظة عنهم فأن المعنى المراد بها إذا هو تحدد على نحو ما حدده الغربيون يصبح آمنا من الفوضى فى إدراك المعنى وحقيقته . فمن هو الرجل المثقف إذن عند الغربيين ؟

إذا كان هذا اللفظ كما أسلفنا هو من الألفاظ المتراضع عليها فى العصر الحاضر ليستدل به على معان صدرت عن هذا العصر دون غيره ، فمن الخير أن نبحث فى أجلى المميزات الأدبية للعصر الحاضر ، لكى نتبين منها ما استوجب استعمال لفظ الثقافة لمعان جاء بها هذا العصر .

من أهم مايمتاز به العصر الحالى أن حياته تقوم على نشر التعليم وتعميمه باتخاذ الوسائل الكثيرة المؤدية لذلك وتقوم بتعليم ذلك العمل الأنسانى المبذول على أسلوب يحفظ للأنسانية أهم الطرائق التفكيرية التى تمكن الناس من الانتفاع بالجهود المتواصلة المثمرة والتى قامت بها الأجيال المتعاقبة والعقول المتتابعة بما فيه خير البشر منذ عرف البشر لنفسه تاريخا

وإن هذا التعليم الذى يرشد الأنسان لاستخدام منتوجات الفكر البشرى أصبحت تقوم به معاهد العلم المنتشرة فى أكثر البلاد المتمدينة ، والتى تساعدها

فى ذلك وسائل النشر المختلفة من صحافة ونشرات ودوريات وما إلى ذلك من وسائل الأذاعة المختلفة

وقد أخذت معاهد العلم تقوم بمهمة تعميم التعليم وفق منهاج مترابط الأوصال ، بحيث أصبح من العسير أن يتفقه العقل فى جزء من أجزاء حلقة المعلومات دون معونة من الحلقة الأخرى ، ولكى تنتفع العقول بمجهودات تاريخ الفكر البشرى كان لابد للمرء أن يحصل على أهم أجزاء تلك السلسلة العلمية التى هى الوسيلة للتثقيف ، وذلك يكون عند نهايات التعليم الثانوى وبدايات التعليم العالى ، أو بعبارة أخرى عند ما يبلغ الأنسان سن الرشد و يدخل فى الميدان الذى يؤهله للتخصص فى عمل من الأعمال . و إن هذا العصر الذى نعيش فيه وتتجلى فيه المدنية الحاضرة تمتد أصوله إلى الماضى البعيد . فأذا أريد إدراك روح هذا العصر أو الألمام به من ماضيه وحاضره كان لابد من أن يتعلم الأنسان ماهو متصل بذلك الماضى ، وماهو متصل بهذا الحاضر . لذلك حرص الغربيون على أن يلقنوا أبناءهم المتعلمين تاريخ المدنيات المختلفة التى أثرت فى مدنية الغرب ، ومن ثم قادهم لشدة العناية بتعلم اليونانية واللاتينية لما كان لليونان والرومان من أثر فى حياة المدنية الغربية الحاضرة

ومن ثم كان الاهتمام بلغات اليونان والرومان وآدابهما ، للانتفاع بما فى الأدبين أو بما فى المدنيتين من خير يحتاج إليه الأنسان من حيث هو إنسان

وفى حرص أوروبا على تعليم آداب اليونان والرومان لناشئتها ، مايدل على أن فى هاتين المدنيتين جانباً إنسانيا خالصا لايستغنى عنه ، و رغم تعاقب السنين لم يكن للخلف أن يهمل هذا الجانب أو يفرط فيه لصلاحه وقوته . فأساليب المرائى ، والمآسى ، والقصص ، والخطابة ، والفلسفة ، والعلم . كل ذلك قديماً نما نمواً قويا فى مدنية اليونان ، وانتقل إلى مدنية الرومان التى لم ترفع منه إلا الأثر المحلى فاصطنع الرومان أساليب اليونان لأنفسهم ، ثم دخل العصر الحديث مع القرن السابع عشر فأخذ الغربيون ما استخلصه الرومان من مناهج اليونان فى التفكير

والآداب ونقى أهل هذا العصر تلك الأساليب من صبغاتها المحلية ليستبقوا منها العـام الشائع

وفى العصر الحديث ظهر تمجيد العقل : فديكارت لا يعتمد إلا عليه فى نقده ومنهجه ، ولاروشفوكولد لا يعتمد إلا عليه فى معرفة الدوافع الخلقية ، و باسكال يؤيد الدين بالعقل ، وبوسويه يفلسف فى التاريخ معتمدا على العقل ، وبوالو يعتمد العقل فى نقده للا دب ، وفينيلون يبحث عن خير أساليب الحكم والحكومات معتمدا على توجيه العقل وجهوده ، ومولير يستخدم العقل والنقد العقلى لرسم الرذائل الفاشية وفهم عيوب الناس

والخلاصة إذن مما تقدم هى أن الأركان التى تقوم عليها صورة التهذيب الفكرى . أو التثقيف الذهنى عند الغربيين تنحصر فى معرفة السبل التى يرى العقل أن لا يتجاوزها لغيرها ليصل إلى غايته من إدراك حقائق الأمور ، وهذه السبل تتجلى أولا فى الألمام بمجهودات العقل فى الماضى ، تلك المجهودات التى تتجلى عند الغربيين فى الخلاصات الدقيقة لفلسفة اليونان والرومان وآدابهما ، ثانيا فى الالمام بالحياة الحاضرة على ماهى عليه بمعنى أن يدرك المرء أهم الحقائق التى كشف عنها العقل وأقرها العلم

على أننا لو نظرنا إلى خلاصة المجهودات الفكرية عند اليونان والرومان فى أوج عزهم لوجدنا أنها تنتهى إلى تسامى العقل للتفكير ، وتسامى الذوق ليحس بالجمال والفن الجميل ، وتسامى السلوك عن أن ينحرف فى مهاوى الشر . وإن فى تسامى العقل والذوق والأرادة معنى تسامى النفس البشرية

وعلى ذلك فأن مطمع التعاليم المهذبة المثقفة فى دور التعليم الثانوى على ماينبغى أن يكون عليه التعليم الثانوى ، هو أن يعمل على مافيه رفعة النفس ومافيه طريق إلى طبيعتها الأنسانية العالية ، وأن تعرف الأنسان أهم أصول العلم ، وتطبيقاته الفنية التى تسهل بها أساليب الحياة وتترفه

تلك هى إذن أصول التعاليم المثقفة . ولا يصح أن يسمى الأنسان مثقفا إلا إذا كان ذا إلمام بهذه الأصول ؟ (للبحث بقية)